فن التصوير والمجتمع

بقلم مصطفى فروخ

من المعروف ان الفنون رسالة كغيرها من الرسالات الفكرية ، فهي في الاصل تعبير عما يخالج نفس الانسان من مختلف التأثرات والاحاسيس ثم عرضها باسلوب رائع جذاب كي تمثل اسمى الميزات الانسانية وانبلها .

غير ان الفنون تهدف بالاضافة إلى هذا الى غاية اجتماعية وغرض اصلاحي يرقيان بالمرء آخر الامر الى ارفع الذروات التي ما فتئت تضطرم بها نفس هذا الانسان المتجدد الباحث دوماً عن المثل الاعلى .

هذه هي بعض اغراض الفنون في المجتمع ولهذا أحلتها الامم الراقية مكانتها المرموقة وجعلتها جزءاً اساسياً من التربية والتوجيه .

ولكن لو بحثنا عن الدور الذي قامت به الفنون قديماً في المجتمع العربي ، لوجدنا ان هذه الفنون قد أخطأت الرسالة وبعدت عن الهدف ، فهي في معظمها كانت وقفاً على بعض الافراد من ملوك وحكام وأثرياء وقلما التفتت جدياً الى المجتمع الذي تعيش فيه وتشاركه همومه ورغباته ، ونادراً ماعالجت مشاكله .

فالفنون كانت ولم يزل معظمها ، ويا للاسف ، تعمل ضمن نطاق ضيق بالنسبة الى حياة الامة العربية . ان همها الاكبر هو الترفيه عن بعض الموسرين واصحاب الجاه والسلطان . وبتعبير آخر ان معظم الفنون عندنا أنانيّ يقوم على المتعة والتسلية حيناً ويقصد الى التجارة حيناً آخر . فالفنون جملةً تعيش بيننا ولا تعيش ، فهي في عزلة بل هي تقبع في برجها العاجي لا تريد ان تتعرف الى المجتمع ولا ان تحس معَ الناس ، فهي في اكثر الحالات استجداء واستخذاء ، ومديح ورثاء ، وغزل وهجاء . اما المجتمع واما الحياة واما الطبيعة ، فهي امور تكاد لا تستحق منها التفاتة .

لذلك نجد انفسنا في شبه فقر مخجل لغياب الكثير من صور الحياة والمجتمع وفقدان كل اثر للتوجيه والتهذيب .

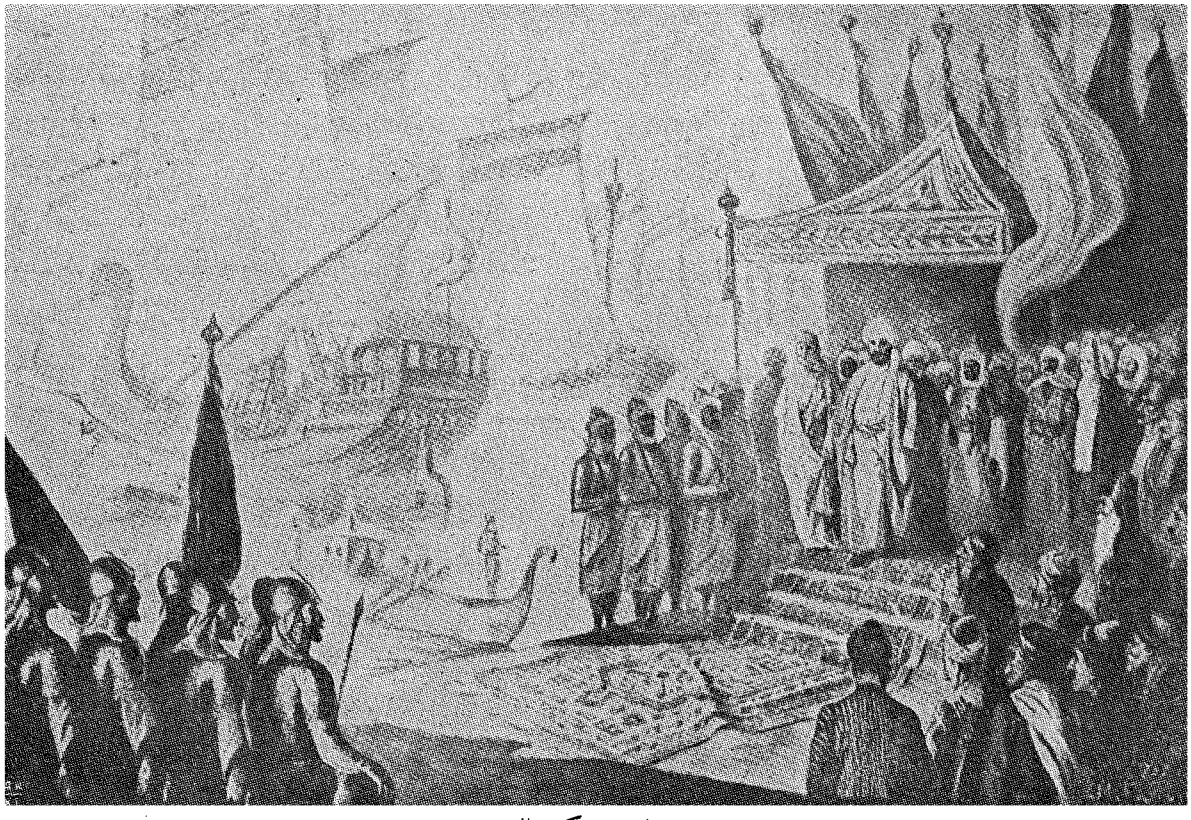

معاوية يركب البحر

اما النقش والبناء والتصوير ، فكان ينظر اليها كمهنة منحطة ليس لاصحابها الحق في وضع اسمائهم على انتاجهم . وكان غاية ما يقصد منها حب الزينة والبهجة فحسب ولم تكن تهدف الى أية فكرة ثقافية . لذلك كثرت فيها الاحجار الكريمة وغصت بمعادن الذهب والفضة ولكنها خلت من معدن الفكر والتأمل والانسانية .

واذا نحن قابلنا ذلك بالنهضة الاوربية ، نرى انه يوم شاءت هذه ان تبني حضارتها ، ركزتها على فكرة الجمال ، الجمال المطلق ، وكرست هذا الجمال لتهذيب النفس والسمو بها الى ابعد ما يمكن من الرقة والسمو الانساني ، فاذا بالادب يدور حول تهذيب هذه النفس وصقلها . وكذلك كان شأن بقية الفنون فقيد وقفت همها على ملاحظة الطبيعة وما فيها من جمال ثم مزجه بالفكر الانساني النبيل تقدمه شراباً سائغاً للانفس البشرية التي عذبها الجسد بجذبه اليها بمختلف مطالبه المادية ليغمرها في حمأة الوحل والتراب ، فاذا بالفن ينقذها من خطر السقوط والانحدار البهيمي ليرفعها الى جو حلو من الحب والخير والجمال .

اما التصوير ، وهو فرع من هذه الفنون ، فلا يقوم معظمه عندنا برسالته الاجتماعية ولا يشترك في تمثيل رغبات الامة . فهو في ذلك كبقية الفنون يردد اشياء حفظها دون ان يحس بهـا ، كالشاعر الذي يتغزل بضوء القمر ولا يرى الدماء التي تسيل قريباً منه ، ولا يسمع انين البؤساء والمحرومين والمشردين ، او كالمغني الذي يتأوه ويشتكي ظلم الحبيب ، وهو بقربه ، متجاهلاً الاضطهاد والظلم النازلين بابناء جلدته . ويبدو من هذا ان الفنون وفي طليعتها التصوير ، اصبحت حرفة وصناعة اكثر منها فناً خالصاً ينبعث من القلب والفكر والوجدان .

وبعدُ فأحب ان اسأل : لماذا لا يضع الفنانون عندنا مثلاً لوحات عن بعض النواحي الاجتماعية كالبطالة والتشرد والانهيار الاخلاقي بدلاً من تصوير الأزهار والنساء العاريات ؟ لماذا لا يصورون لنا شيئاً عن الفوضى الادارية والسياسية التي نتألم منها ؟ لماذا لا يمثلون لنا بعض المشاهد التاريخية التي تحمل اجدادنا فتحفزنا للعمل والاقدام ؟ لماذا لا يضعون لوحات عن جهاد الفلاح في ارضه ونتيجة عمله ليحببوا الناس بالارض ، بل لماذا لا يعرضون لنا في لوحاتهم بعض مشاهد من كفاح العالم العربي في سبيل تحرره واستقلاله ؟ واخيراً لماذا لا يصورون لنا بعض عاداتنا الجميلة وآثارنا التاريخية كي نحبها ونحافظ عليها ؟

نهاية عهد !

ان هناك مجالاً واسعاً امام الفنانين لوضع لوحات تمثل مشاكلنا ، فالفنون هي بمثابة المرآة التي ترى الامة صورتها عليها ، فمتى شاهدت اهدافها ممثلة امامها باسلوب مثير احدثت ردة عميقة تجاوبت مع رغباتها وسهل معها الوثوب والتنفيذ .

ولكن الانصاف يقضي علينا ان نقول ايضاً ان للفنانين بعض العذر لأن ضرورات الحياة القاسية كثيراً ما تمنعهم من تحقيق مثل هذه المواضيع التي تتطلب تكاليف مادية ومعنوية باهظة . وليس هناك وعي شعبي او حكومي يقدّر او يساعد . لذلك يصدف الفنان عنها ليصور اشياء عادية ترضي الناس فيشترونها بما يقوم بمعيشة الفنان الذي هو ايضاً من طينة البشر وبحاجة الى الغذاء والكساء .

وهكذا نرى ان الفن التصويري لا يستطيع ان يؤدي رسالته الاجتماعية المثلى في البلاد العربية الا بمؤازرة الامة وتشجيع الحكومة ، فمتى اجتمع اخلاص الفنان الى وعي الامة تمت لنا الثمرة الصالحة والنتيجة الطيبة .

مصطفى فروخ